طه حسين

الأيّام

3

المكتبة المفتوحة

النص + ملف

cérès éditions

الفصل الأول

على باب الأزهر

كان صاحبنا الفتى قد أنفق أربعة أعوام في الأزهر، وكان يعدُّها أربعين عامًا؛ لأنها طالت عليه من جميع أقطاره، كأنها الليل المظلم، قد تراكمت فيه السحب القاتمة الثقال، فلم تَدَعْ للنور إليه منفذًا، ولم يكن الفتى يضيق بالفقر ولا بقصر يده عما كان يريد، فقد كان ذلك شيئًا مألوفًا بالقياس إلى طلاب العلم في الأزهر الشريف.

وكان الفتى يرى من حوله عشرات ومئات يَشْقَوْن كما يشقى، ويلقَوْنَ مثل ما يلقى، وتقصر أيديهم عن أقصر ما كانوا يحبون، قد اطمأنوا إلى ذلك، وألفته نفوسهم، واستيقنوا أن الثراء والسعة وخفض العيش أشياء تعوق عن طلب العلم، وأن الفقر شرط للجدِّ والكدِّ والاجتهاد والتحصيل، وأن غنى القلوب والنفوس بالعلم خيرٌ وأجدى من امتلاء الجيوب والأيدي بالمال.

وإنما كان يضيق أشدَّ الضيق بهذا السأم الذي ملأ عليه حياته كلها، وأخذ عليه نفسه من جميع جوانبها.

حياة مُطَّرِدَةٌ متشابهة لا يجدُّ فيها جديد منذ يبدأ العام الدراسي إلى أن ينقضي: درس التوحيد بعد أن تُصلَّى الفجر، ودرس الفقه بعد أن تشرق الشمس، ودرس في النحو بعد أن يرتفع الضحى، وبعد أن يُصيب الفتى شيئًا من طعامٍ غليظ، ودرس في النحو أيضًا بعد أن تُصلَّى الظهر، ثم فراغ فارغ كثيف بعد ذلك يُصيب فيه الفتى شيئًا من طعامٍ غليظٍ مرة أخرى. حتى إذا صُلِّيت المغرب راح إلى درس المنطق يسمعه من هذا

الشيخ أو ذاك، وهو في كل هذه الدروس يسمع كلامًا مُعادًا وأحاديث لا تمس قلبه ولا ذوقه، ولا تغذو عقله، ولا تضيف إلى علمه علمًا جديدًا، فقد تربَّت في نفسه تلك المَلَكة كما كان الأزهريون يقولون، وأصبح قادرًا على أن يفهم ما يُكرره الشيوخ من غير طائل.

وكان الفتى يُفكر في أن أمامه ثمانية أعوام أخرى، سيعدُّها ثمانين عامًا، كما عدَّ الأعوام الأربعة التي سبقتها، وفي أن عليه أن يختلف إلى هذه الدروس كما تعوَّد أن يفعل، وأن يعيد ويبدئ في هذا الكلام، الذي لا يُسيغه ولا يجد فيه غَناء.

وفي أثناء هذا كله ذُكر اسم الجامعة، فوقع في نفسه أول الأمر موقع الغرابة الغريبة؛ لأنه لم يسمع هذه الكلمة من قبل، ولم يعرف إلا الجامع الذي كان ينفق فيه بياض النهار وشطرًا من سواد الليل. فما عسى أن تكون الجامعة؟ وما عسى أن يكون الفرق بينها وبين جامعِهِ ذاك أو جوامعه تلك الكثيرة التي كان يختلف فيها إلى شيوخه؟ فما أكثر ما كان بعض الشيوخ ينْأَوْن بدروسهم وطلابهم عن الأزهر، ويُؤْثرون أنفسهم بمسجد من هذه المساجد الكثيرة في الحي! وكان تنقُّل الفتى بين هذه المساجد يرفِّه عنه بعض الترفيه.

على أنه لم يلبث أن فهم كلمة الجامعة هذه فهمًا مقاربًا، وعرف أنها مدرسة لا كالمدارس، وأحسَّ أن مزيتها الكبرى عنده أن الدروس التي ستلقى فيها لن تشبه دروس الأزهر من قريبٍ أو بعيدٍ، وأن الطلاب الذين سيختلفون إليها لن يكونوا من المعمَّمين وحدهم، بل سيكون فيهم المطربشون، وعسى أن يكونوا أكثر عددًا من أصحاب العمائم؛ لأن هؤلاء لن يعدلوا بعلمهم الأزهري علمًا آخر، ولن يشغلوا أنفسهم بهذه القشور التي يُضيع فيها أبناء المدارس — كما كانوا يُسمونهم في تلك الأيام — أوقاتهم.

وكان نبأ الجامعة هذا إيذانًا للفتى بأن غمَّته تلك توشك أن تُكشَف، وبأن غَمْرَته تلك توشك أن تنجلي، فقد يُتاح له أن يسمع غير ما تعوَّد أن يبدئ فيه ويعيد من علمه ذاك الممل، وقد أقام الفتى مع ذلك على شكٍّ ممضٍّ يؤذي نفسَه أشد الإيذاء، ولا يستطيع أن يُصرح به لأحد من أصدقائه أو ذوي خاصَّته.

أتقْبله هذه الجامعة بين طلابها حين يتم إنشاؤها أم ترده إلى الأزهر ردًّا غير جميل لأنه مكفوف، وليس غير الأزهر سبيلًا إلى العلم للمكفوفين؟ كان هذا الشك المؤلم يؤرِّق ليله ويقضُّ مضجعه، ولم يكن يُناجي به إلا نفسه. كان يستحي أن يتحدث عن آفته تلك إلى الناس، وكان يؤذيه أشدَّ الإيذاء أن يتحدث الناس عنها إليه، وما أكثر ما كانوا يفعلون!

عاش إذن بين خوف ملحٍّ ورجاء ضئيل يعتاده بين حين وحين، فيتيح لنفسه شيئًا من راحة وَرَوْحٍ، حتى إذا أنشئت الجامعة وعلم الفتى علمها ذهب عنه الخوف، وملأ الأمل نفسه رضًا وبهجةً وسرورًا. واختلف إلى دروسه في الأزهر ذات يوم فلم يسمع من شيوخه شيئًا، ولم يفهم عنهم شيئًا، كان في شغلٍ عنهم وعن دروسهم بما سيكون حين يُقبل المساء، ولأول مرة سمع درس الأدب في الضحى فكان حاضرًا كالغائب، وَيَقِظًا كالنائم، ولم ينتظر أن تُصلَّى العصر، وإنما سعى إلى الجامعة في أعقاب درس البلاغة مع زميليه، فأدَّى كل منهم ذلك الجنيه الذي لم يكن بدٌّ من أدائه ليؤذن له بالاستماع إلى الدروس. وكان غريبًا عند هؤلاء الفتية أن يشتروا العلم بالمال وإن كان قليلًا، فهم لم يتعودوا ذلك ولم يألفوه، وإنما تعودوا أن يُرزقوا أرغفةً في كل يوم ليطلبوا العلم في الأزهر، وقد وجدوا بعض ما يُقيم الأَوَد، وكان أداء ذلك الجنيه عليهم عسيرًا، ولكنهم أحبوا دروس الجامعة بمقدار ما وجدوا من العسر في أداء ثمنها.

واستمع الفتى لأول درس من دروس الجامعة في الحضارة الإسلامية، فراعه أول ما راعه شيء لم يكن له بمثله عهد في الأزهر؛ فهذا أحمد زكي بك يبدأ الدرس بهذه الكلمات التي لم يسمعها الفتى من قبل: «أيها السادة: أحييكم بتحية الإسلام، فأقول: السلام عليكم ورحمة الله.»

وإنما كان الفتى يسمع في الأزهر كلامًا آخرَ لا يتجه به الشيوخ إلى الطلاب، وإنما يتَّجهون به إلى الله عز وجل فيحمدونه ويُثنون عليه، ولا يحيي فيه الشيوخ طلابهم، وإنما يُصلون فيه على النبي وعلى آله وأصحابه أجمعين!

ثم راع الفتى بعد ذلك أن الأستاذ لم يقل في أول درسه: «قال المؤلف رحمه الله»، وإنما استأنف الدرس يتكلم من عند نفسه ولا يقرأ في كتاب. وكان كلامه واضحًا لا يحتاج إلى تفسير، وكان سوِيًّا مستقيمًا لا قنقلة فيه ولا اعتراض عليه، وكان غريبًا كلَّ الغرابة، جديدًا كلَّ الجِدَّة، مَلَكَ على الفتى عقلَه كلَّه وقلبه كلَّه، فشُغل عن صاحبيه، وشُغل عمن كان حوله من الطلاب، وما كان أكثرهم! حتى إذا أوشك الدرس أن ينقضي، أعلن الأستاذ أنه سيُعيد هذا الدرس بعد دقائق ليتاح للطلاب الكثيرين الذين لم يُتَحْ لهم دخول الغرفة أن يسمعوه، وانصرف الفوج الأول من الطلاب، ولكن صاحبنا لم يَرِمْ، وإنما أقام في مكانه حتى سمع الدرس مرة أخرى.

لم ينمِ الفتى من ليلته تلك، وسمع المؤذن يدعو إلى صلاة الفجر فلم ينهض من فراشه، وإنما تثاقل وتثاقل، ولم يخرج من غرفته إلا حين ارتفع الضحى، ولولا درس الأدب في الرواق العباسي لظل في غرفته حتى يُقبل المساء.

وقد سمع الفتى درس الأدب غير حفيٍّ به أول الأمر، ولكن الشيخ سأله عن شيء فلجلج الفتى وسَخِر منه الشيخ، وسأله عن هذين المقطفين اللذيْن رُكِّبا في رأسه ماذا يصنع بهما؟ يريد بالمقطفيْن أذنيه. ومنذ ذلك الوقت أقبل الفتى على درس الأدب هذا كما كان يُقبل عليه من قبل، فلم يُضيِّع مما قال الشيخ حرفًا.

وسمع بعد ذلك درس النحو فلم يمنح الأستاذ إلا أحد مقطفيه هذيْن، ولعله لم يمنحه مقطفه كله، إنما كان يعيش لساعة المساء، ويتعجَّل ذلك الدرس الذي سيسمعه من أحمد زكي بك عن الحضارة المصرية القديمة. وقد سمعه فلم تَسَعْهُ الأرض على رُحْبها؛ سمع أشياء لم تكن تخطر له على بال، ولم يكن يتصور أنها قد كانت، أو أن الناس يمكن أن يتحدثوا بمثلها.

وكان تحرُّقه إلى درس اليوم الثالث أشدَّ وأقوى من تحرُّقه إلى الدرسين اللذيْن سبقاه، فسيكون الأستاذ إيطاليًّا، وسيتحدَّث باللغة العربية، إيطاليٌّ يتحدث إلى المصريين

في العلم بلغتهم العربية، وفي شيء لم يسمعِ الفتى وأترابه الأزهريون به قبل يومهم ذاك، ولم يفهمه الفتى وأترابه حين سمعوه، أنكرته آذانهم، وأنكرته نفوسهم وأذواقهم أيضًا، وكان اسم هذا الشيء الغريب: «أدبيَّات الجغرافيا والتاريخ».

ما كلمة الأدبيات هذه؟ وكيف تكون في الجغرافيا والتاريخ؟ وقد أقبل الفتية على الدرس فلم يفهموا شيئًا؛ لأنهم لم يسمعوا شيئًا.

كان الأستاذ أغنالسيو جويدي شيخًا كبيرًا نحيف الصوت ضئيله جدًّا لا يبلغ عنه أقرب الطلاب إليه مجلسًا. وكان الطلاب كثيرين، وكانت ضآلة الصوت تغريهم بالضجيج، فضاع الدرس الأول في غير طائل بعد أن تَعِبَ الأستاذ في إلقائه، وتعب الطلاب في محاولة الاستماع له، واضطرت الجامعة إلى أن تختار من الطلاب أرفعهم صوتًا وأفصحهم نطقًا ليبلغ عن الأستاذ كما يبلغ أحد المصلين عن الإمام حين تقام الصلاة.

ولم ينفق الفتى ثلاثة أيام منذ افتتاح الجامعة حتي تغيرت حياته تغيرًا فجائيًّا كاملًا.

الفصل الثاني

كيف سقطتُ في امتحان العالمية!

لم يكد صاحبنا يتصل بالجامعة حتى رثَّت الأسباب بينه وبين الأزهر، فأصبح لا يمنحه من الوقت إلا أقصره، ولا يعطيه من الجهد إلا أيسره، ولم تكن الجامعة وحدها هي التي صرفته عن الأزهر، وإنما صرفه عنه قبل ذلك زهده فيه، وضيقه به، ومَلَله من أحاديثه المُعادة، وقد انصرف صاحباه عن الأزهر أيضًا: ذهب أحدهما إلى كلية الفرير يُعلِّم فيها اللغة العربية، وذهب الآخر إلى المطبعة الأميرية يُصحح فيها ما كانت تطبع من الكتب، فلم يبقَ لصاحبنا في الأزهر أَرَب، وقد ضاق حتى بأحبَّ ما كان في الأزهر إلى نفسه، وهو المدرس الشيخ سيد المرصفي، فأعرض عنه كل الإعراض، لا زهدًا فيه، ولا نفورًا منه، ولكن سخطًا على الشيخ رحمه الله؛ لأنه أذعن لشيخ الأزهر وأسرف في الإذعان، وأعرض عن معابثة تلاميذه، وتوهَّم أن الجواسيس قد أرصدت له، وبُثَّت عليه، فتحفَّظ في كل ما كان يقول، وكره أن يسمع من تلاميذه بعض ما كانوا يأخذون فيه إذا جلسوا إليه من عبث الشيوخ وخوض في حديثهم! وقال للفتى ذات يوم حين أخذ في بعض ذلك: «لا، لا، لا، دعنا نأكل العيش!» فتركه الفتى يأكل العيش … وأصبح لا يلقاه إلا يوم الجمعة يسعى إليه في بيته، فينفق معه الساعات حلوة حُرَّة، يقول فيها ما يشاء، ويسمع ما يشاء الشيخ أن يقول، وما أكثر ما كان الشيخ يقول!

ومنذ ذلك الوقت أيضًا سلك الفتى في حياته طريقًا لم يكن يُقدِّر أن سيتاح له سلوكها، فاتصل بالجريدة ومديرها الأستاذ لطفي السيد، وقوِيَت الصلة بينهما حتى

كان يلقاه مرات في كل أسبوع، وكان يلقى عنده من شيوخ المطربشين وشبابهم قومًا كثيرين، وكانت أحاديث الأستاذ وزائريه تفتح للفتى أبوابًا من العلم والمعرفة لم تكن تخطر له ببال من قبل، ولم يكن يقدر وجودها فضلًا عن اتصاله بها من قريبٍ أو بعيدٍ.

واتصل الفتى كذلك بالشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله فأكثر الاختلاف إليه والاستماع له، وما هي إلا أن أخذ يجرِّب نفسه في الكتابة، كما جرب نفسه في الشعر بين يدي أستاذه المرصفي. ولم يكد الفتى يأخذ في الكتابة حتى عُرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد، قلما كان الشباب يقدمون عليها في تلك الأيام، ولكنه كان نقدًا محافظًا غاليًا في المحافظة، إلا أن يعرض لشئون الأزهر، فهنالك كان يخرج حتى عن طور الاعتدال، ويغلو في العبث بالشيوخ، ويجد التشجيع كل التشجيع على ذلك من الشيخ عبد العزيز جاويش، وربما وجد منه إغراءً بذلك وحثًّا عليه. وكان صاحبنا موزَّعًا بين مذهبين من مذاهب الكتابة في ذلك الوقت، أحدهما: مذهب الاعتدال والقصد، ذلك الذي كان الأستاذ لطفي السيد يدعوه إليه ويزينه في قلبه، والآخر: مذهب الغلو والإسراف، ذلك الذي كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغريه به ويحرِّضه عليه تحريضًا، وكان الفتى يستجيب للمذهبين جميعًا، فإذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة، وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني.

ولم ينسَ الفتى قط كلمة كتبها فأورثته ألمًا لاذعًا وحزنًا مُمِضًّا، واضطرته إلى أن يسعى معتذرًا متوسِّلًا بالصديق إلى مَن كُتبت فيه هذه الكلمة. كان ذلك حين اختصم الناس حول سؤال من أسئلة الامتحان في الشهادة الثانوية في الأدب، فكان ممن شارك في هذه الخصومة زميل أزهري من زملائه كان يُعلِّم في كلية الفرير، وكان هذا الزميل ينتمي إلى أسرة كبيرة ويَعدُّ انتماءه إليها من مفاخره، ولكنه لم يكن من هذه الأسرة إلا لأن أباه كان من عتقائها، فلما ردَّ صاحبنا عليه نسبَه إلى الأسرة وبيَّن طبيعة انتسابه إليها لم يُرد إيذاء زميله، وإنما أعجبه هذا التعريض فاستجاب له، ولم يُراجع نفسه فيه إلا حين قرأه مطبوعًا في الصحيفة، ولامه فيه صاحباه، هنالك أُسْقِطَ في يده ولم يَرضَ زميله إلى بعد جهدٍ وعناءٍ. وقد رضي الزميل وصفح، ولكن الفتى لم ينسَ هذا الإثم قط، وما أكثر ما ازدرى نفسه، وحاول أن يأخذها بألا تضع كلمة في مقال حتى تفكر وتقدِّر وتتجنب الإيذاء ما وجدت إلى ذلك سبيلًا!

ولم يكن هذا الندم كل ما جرَّ عليه طول اللسان من ألم، فما أكثر ما كان يَكْلَفُ بالنقد فيمضي فيه مؤمنًا به حريصًا عليه لا يحسب لعواقبه حسابًا.

ثم تمضي الأيام في إثر الأيام، وإذا هو قد نسي ما كتب، وشُغل عنه بأشياء أخرى، ولكن الناس لم ينسَوه وإنما حفظوه له، وقيَّدوه عليه، وأخذوه به حين سنحت الفرصة. وطول اللسان هو الذي قطع الصلة قطعًا حاسمًا بين صاحبنا وبين الأزهر، ودفعه دفعًا إلى حياته التي أتيحت له، وعرَّضه لسخط أيِّ سخط، وحزن أيِّ حزن، وعناء أيِّ عناء. والغريب أنه قد تلقَّى السخط والحزن والعناء باسمًا موفور الرضا، طيب النفس، فلم تتعلق نفسه قط بالجلوس إلى عمود من أعمدة الأزهر، ولا بإلقاء الدرس في حلْقة من حلقاته.

لم يأسَ إذن على انقطاع الصلة بينه وبين الأزهر، وإنما ملأ قلبه الحزن والأسى حين عرف سخط أبيه الشيخ، وحزن أمه التي كان يختصُّها بالحبِّ والبرِّ والحنان.

كان ذلك حين أنشأ الشيخ رشيد رضا رحمه الله شيئًا سمَّاه مدرسة الدعوة والإرشاد، وأعلن أن هذه المدرسة ستُعِدُّ طلابها من الأزهريين لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ولإرشاد المسلمين أنفسهم إلى دينهم الصحيح المبرأ من أوهام القرون وأباطيلها. وقد ضاق المجدِّدون من أبناء الأزهر بهذه المدرسة أشدَّ الضيق، وسخطوا عليها أعظم السخط. رأوا فيما أحاط بإنشائها من الظروف انحرافًا عن الوفاء للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من رجل كان يرى نفسه أقرب تلاميذ الشيخ إليه، وأخصهم به وأوفاهم له، فقد عطف الخديو على هذه المدرسة وأعانها وأغرى شيوخ الأزهر بتأييدها. ورأى تلاميذ الأستاذ الإمام أن في عطف الخديو على هذه المدرسة وإعانته لها ما أثار في نفوسهم الرَّيْب فنفَّروا الناس منها، وأطلقوا ألسنتهم فيها، وعابوا على الشيخ رشيد أنه ثاب إلى من أخرج الأستاذ الإمام من الأزهر وعرَّضه لكثير من الشر والأذى وأغرى به الشيوخ، حتى أذاعوا عن الشيخ ما أذاعوا من السوء، ونالوه بما نالوه من المكروه.

وفي ذات يوم أقام الشيخ رشيد وأصحابه حفلًا بهذه المدرسة، واجتمعوا حول مائدة العشاء في فندق من فنادق القاهرة يقال له: فندق «سافوي»، ونشرت بعض الصحف أنباء زعمت فيها أن أكواب الشمبانيا أديرت حول هذه المائدة، وكان جماعة من شيوخ الأزهر يتقدمهم شيخهم الأكبر قد شهدوا هذا العشاء، ورأوا ما أدير فيه من الأكواب فلم يُنكروا بالعمل ولا بالقول.

هنالك ثارت ثائرة المخلصين للأزهر، فلهجوا بالشيوخ وقالوا فيهم فأكثروا القول. ودافع المدافعون عن الشيوخ بأن زجاجاتٍ فُتحت في ذلك العشاء وكان لفتحها فرقعة، ولكنها لم تكن زجاجات الشمبانيا، وإنما كانت زجاجات الكازوزة! ولكن خصوم الشيوخ من أبناء الأزهر لم يقبلوا هذا الدفاع، ولم يُصدِّقوه، وإنما مضَوْا يلهجون ويقولون في الشيوخ فيُكثرون القول، وكان صاحبنا الفتى أطولهم لسانًا، وأجرأهم قلمًا، وأجرحهم لفظًا. عاب الشيوخ شعرًا ونثرًا، ونشر عبد العزيز جاويش له ذلك في صحيفة «العلم» فرضِيَ المجددون وأغرقوا في الرضا، وسخط المحافظون وأسرفوا في السخط، وتناقل أولئك وهؤلاء هذه الأبيات الثلاثة من شعر الفتى الذي لم ينسبه إلى نفسه، وإنما زعم أنه تلقاه في البريد:

رعَى اللهُ المشايخَ إذ توافَوْا ... إلى سافواي في يومِ الخميسِ
وإذ شهدوا كؤوسَ الخمر صِرْفًا ... تدورُ به السُّقاة على الجلوسِ
رئيسَ المسلمين عداك ذمٌّ ... ألا لله درُّك من رئيسِ

ثم مضت الأيام وتتابعت فيها الأحداث، حتى إذا دار العام رأى الفتى نفسه يتهيأ للامتحان في الأزهر لينال درجة العالمية. وقد تلقَّى الفتى ما كان يسمى حينئذٍ بالتعيين، وهو الدروس التي يجب أن يعدها ليلقيها أمام لجنة الامتحان، ويثبت لمناقشة الممتحنين فيها.

فاستعد الفتى وأحسن الاستعداد، وحفظ فأحسن الحفظ، حتى إذا لم يبق بينه وبين شهود الامتحان إلا سواد الليل، وأقبل عليه شيخه المرصفي رحمه الله فأنبأه هذا النبأ العجيب الذي لم يحمله إليه في ضوء النهار، وإنما حمله إليه في ظلمة الليل، بعد أن صُلِّيت العشاء.

قال الشيخ: إذا أصبحت يا بُني فاستقلْ من الامتحان ولا تحضره من عامك هذا، فإن القوم يأتمرون بك ليسقِّطوك.

قال الفتى: وما ذاك؟!

قال الشيخ: تعلم أني عضو في لجنة الامتحان التي ستحضر أمامها غدًا، والتي يرأسها الشيخ دسوقي العربي، فقد دُعِيَ رئيس اللجنة إلى الشيخ الأكبر وأُمِر بإسقاطك مهما تكن الظروف.

قال الفتى: ولكني سأحضر أمام لجنة أخرى يرأسها الشيخ عبد الحكم عطا.

قال الشيخ: فإن هذه اللجنة لن تجتمع؛ لأن رئيسها أَبَى أن يسمع للشيخ الأكبر حين أمره بإسقاطك، فلما ألحَّ الشيخ الأكبر عليه ألحَّ هو في الإباء، فلما خيره الشيخ الأكبر بين إسقاطك وبين ألا تجتمع لجنته، آثر ألا تجتمع اللجنة، وقال: إنما هو غداء وثلاثون قرشًا!

وأبَى الفتى أن يستقيل على رغم إلحاح الشيخ المرصفي عليه في ذلك، ونام ليله هادئًا موفورًا، واستقبل صباحه راضيًا مسرورًا، وغدا على لجنة الامتحان، وكانت مجتمعة في مكان في الدرَّاسة لا يعرف الفتى أقائم هو أم درس فيما درس من المنازل والدور.

غدا على لجنة الامتحان فألقى التحية، وجلس، وكان أعضاء اللجنة يشربون الشاي.

قال الرئيس للفتى: هل أفطرت؟

قال الفتى: نعم.

قال الرئيس: فأتمم هذا الكوب الذي شربت نصفه لتحصل لك البركة.

وأخذ الفتى من الشيخ كوبه مُبتسمًا، وشرب ما فيه متكرِّهًا، ثم أخذ في الدرس الأول فأنفق فيه ساعتين ونصف ساعة، ولِقِيَ فيه من المناقشة أشدها، ومن الجدال أعنفه. وفي أثناء ذلك دخل الشيخ الأكبر، فلم يسلِّم، وإنما قال: حرام عليك يا شيخ دسوقي، حرام عليك، ارفق به! ارفق به! ثم انصرف.

ولم يرفق الشيخ دسوقي بالفتى، وإنما أضاف شدة إلى شدة، وعنفًا إلى عنفٍ، وانقضى الدرس الأول، وقيل للفتى: اذهب فاسترح.

وخرج الفتى فإذا كرسيٌّ قد وُضع إلى جانب الباب، وجلس عليه الشيخ الأكبر كأنه ينتظر شيئًا.

ولم يكد يرى الفتى حتى دعا شيخًا من الشيوخ كان هناك وقال له: خذه يا شيخ إبراهيم فاسْقِهِ فنجانًا من القهوة!

وفي انتظار هذا الفنجان أقبل من حمل المحفظة إلى الفتى إيذانًا بأنه قد سقط، وبأن اللجنة لا تريد أن يُتمَّ ما بقي له من الدروس.

الفصل الثالث

أثر اختفاء المرأة

وعاش الفتى وصاحباه أعوامًا غرباء عن الأزهر قريبين منه، يُلِمُّون به بين حين وحين، إن أتيح لهم ذلك، فيجلسون في مجلسهم ذاك بين الإدارة والرواق العباسي، ويتندرون كما أحبوا أن يفعلوا دائمًا بالمقبلين على الأزهر والخارجين منه، وبالشيوخ والطلاب. وربما قرأ عليهم أحدهم الزيات في هذا الكتاب أو ذاك من كتب الأدب القديمة أو الجديدة، وربما قرأ هذه الصحيفة أو تلك من صحف المساء، فأخذوا في حديث السياسة وخطوبها، أو في ذكر كُتَّاب تلك الأيام وشعرائها، يُلِمُّون بهذا كله ولا يمعنون فيه، فقد كانوا في تلك الساعات لا يكرهون شيئًا كما كانوا يكرهون أخذ الأمور مأخذ الجِدِّ.

كانوا يقصدون إلى الأزهر ليلهوا ويلعبوا، لا ليعملوا ويجدُّوا، فقد استقر في نفوسهم أن لِلْمُجِدِّ مكانًا غير الأزهر، هو الجامعة إذا كان المساء، وهو دار الكتب أثناء النهار. وربما شاقهم طعام الأزهر، فذهب ثالثهم الزناتي فاشترى لهم من هذا الطعام، وأقبلوا عليه كَلِفين به ساخرين منه، ومن الذين يعيشون عليه، ومن أنفسهم حين كانوا يعيشون عليه. فقد تغيرت أحوالهم شيئًا؛ عمل أحدهم مدرسًا في كلية الفرير، وعمل الآخر مُصَحِّحًا في المطبعة الأميرية، وأصبح لكل منهما مرتب في آخر الشهر يُتيح له شيئًا من سعة، وينأى به عن حياة الأزهر تلك القاسية الجافية، وعن طعام الأزهر ذلك الخشن الغليظ. ولم يكن صاحبنا الفتى معلمًا ولا مصححًا، ولم يكن له مرتب في آخر الشهر أو أوله، ولكن حياته مع ذلك لانت بعض اللين. فقد ظلَّ الشيخ يُرسل إليه وإلى أخيه وابن خالته ما تعوَّد أن يرسل من الزاد والنفقة على اتساع فيهما قليل. وأضيف إلى ذلك ما كان

أخو الفتى يأخذه من مدرسة القضاء في كل شهر، وما كان ابن خالته يأخذه من دار العلوم في كل شهر أيضًا. وكان كلاهما يُصيب غداءه في المدرسة التي يختلف إليها. وكان صاحبنا قد خلِّي بينه وبين ما يتاح له من طعام أثناء النهار، ليس ليِّنًا ولا رقيقًا، ولكنه خير من طعام الأزهر على كل حال. وأتيح للفتى أن يُصيب من الطعام المطبوخ مرتين في الأسبوع، فكان طعام الأزهر بالقياس إليه خشنًا غليظًا، وكان ربما استطرفه بين حين وحين.

وقد جعل هؤلاء الفِتية الثلاثة يحيَوْن حياة الأدباء في تلك الأيام. وكانت حياة الأدباء في تلك الأيام مِزاجًا غريبًا من متعة تُختلس بين حين وحين، ومن بؤسٍ نفسيٍّ يُفرضونه على أنفسهم، وإن لم تفرضه عليهم الحياة؛ فالأديب عندهم وعند غيرهم في تلك الأيام بائس بطبعه، طامح بطبعه إلى النعيم، يتَّخذ البؤس لنفسه عشيرًا، ويجعل النعيم لنفسه حلمًا، ويختلس المتعة القصيرة بين حين وحين إن أتيح أن يخرج من حياته المألوفة إلى رياضة في الضواحي، أو تَنَزُّهٍ في الحدائق، أو جلسة في قهوة من القهوات.

وكانت حياة الأديب فيما وراء ذلك ألوانًا من الرضا والسخط تأتيه من قراءاته الكثيرة المختلفة، قِوامها أن يُفكر كما كان يفكر القدماء الذين يقرأ آثارهم ويشعر كما يشعرون، ويسير في الناس كما كانوا يسيرون. وقد ألحَّ أولئك الفِتيَة في قراءة الشعر الجاهليِّ والإسلاميِّ والعباسيِّ وحفظه، كما ألحُّوا في قراءة أخبار الشعراء والكُتَّاب وعلماء اللغة، فعاشوا عيشة أولئك الناس في دخائل نفوسهم، وإن لم يستطيعوا أن يعيشوها في حياتهم الواقعة؛ لأن الظروف كانت تحُول بينهم وبين ما كانوا يريدون من ذلك، وهم قرءوا شعر أبي نواس وأصحابه، وقرءوا شعر الغَزِلين العذريِّين، فاستحبُّوا من الغزل ما استحبَّ أولئك الشعراء، وذهبوا فيه مذاهبهم المختلفة، حافظ منهم من حافظ فآثر شعر العذريين وغزلهم، وجدَّد منهم من جدد فآثر شعر العباسيين وغزلهم، وخلقوا لأنفسهم مُثُلًا للجمال يتغزَّلون فيها ويُشَبِّبون بها، ولم يكن للمحافظين منهم بدٌّ من أن يخترعوا مُثُلَهم العليا اختراعًا، فقد كانت الحياة تحول بينهم وبين لقاء الغواني. ولكن المجددين كانوا خيرًا منهم حظًّا، فلم يكن من الممتنع أن يلقوا في الأزهر أو خارج الأزهر بعض الوجوه الصِّباح، وأن يتخذوا لغزلهم موضوعات لا يخترعها لهم الخيال، وإنما تعرضها عليهم الحياة.

وكذلك وُجد بين هؤلاء الفِتية من كان يذهب مذهب جميل وكُثَيِّر، وكان الحرمان المطلق محتومًا عليه؛ كما كان منهم من يذهب مذهب أبي نواس وأصحابه، وكان حظه

من الحرمان أقل، ونصيبه من النعيم أكثر، فهو كان يستطيع أن يلقى أصحاب الوجوه الصِّباح، وأن يقول لهم ويسمع منهم، ويهيم بهم، ويقول فيهم الشعر، ويذهب في هذا الشعر المذاهب، وربما ورَّطه هيامه وشعره وورَّط معه صاحبيه في الشر القليل أو الكثير.

وكان ثالث هؤلاء الفتية نُواسيَّ الشعر ونواسيَّ الهوى، وما أسرع ما أَلِف أفرادًا من ذوي الوجوه الحسان، واطمأن إليهم وأكثر من لقائهم، يسعى إليهم وحده في مجالسهم، وربما دعا أحدهم إلى مجلسه مع صاحبيه، وصاحباه يضحكان منه ويعبثان به أول الأمر، ثم يرثيان له ويُلحَّان عليه بالنصح بعد ذلك، يؤدون إليه ما يُحبون من العبث به والنصح له، بالحديث مرة وبالشعر مرة أخرى. ولكنه لا يحفِل بعبثهما ولا بنصحهما، وإنما يمضي مع هواه لا يَلْوِي على شيء، حتى أصبح حديث أترابه، وحتى أقبل الفتية ذات يوم إلى مجلسهم ذاك من الرواق العباسي فوجدوا بعض الزارين على عَبَثِهم قد كتب لهم على الجدار الذي كانوا يستندون إليه هذين البيتين اللذين كتبهما شاعر قديم لأبي عبيدة معمر بن المثنى:

صلَّى الإلهُ على لوطٍ وشِيعتِه أبا عبيدة قُلْ بالله آمينا
فأنت عندي بلا شكٍّ بقيَّتهم ... ...

ولم يكد صاحبا الفتى يريان هذا الشعر حتى أخذهما ما يُشبه الصاعقة، وضحك صاحبنا، وأغرق في الضحك، وثاب صاحباه إلى مثل ما كان فيه، فضحكا معه وأغرقا في الضحك أيضًا، ولكن بغضهم لزملائهم من طلاب الأزهر زاد أضعافًا مضاعفةً، وجعل الفتى النواسيُّ يبحث عن كاتب هذين البيتين بدون أن يصل من بحثه إلى شيءٍ، ولكنه رجح لغير سبب أن خصمه إنما هو ذلك الطالب الأسود الذي كان يُنافسه في دروس النحو، والذي كان يُبغضه أشدَّ البغض، فاتخذه لنفسه عدوًّا، وجعل يتعمد إيذاءه كلما وجد إلى إيذائه سبيلًا، فكان لا يراه — وما أكثر ما كان يراه — إلا رفع صوته بهذين البيتين اللذين حفظهما فيما زعم عن أبيه:

في الهندِ طيرٌ ناطقٌ سبحانَ مَن قد ألهمَهْ
يقولُ في تسبيحِه ابنُ الأَمَـهْ ما ألأَمَـهْ

ومنذ ذلك الوقت أسرف ذلك الفتى النواسيُّ على نفسه وعلى صاحبيه وعلى زملائه من الطلاب، فكان يتتبع سيئاتهم وأغلاطهم، ويزيد فيها ويضيف إليها، ويقول في ذلك الشعر، حتى أصبح هجَّاءً. وكان لا يحتفظ بهجائه لنفسه ولصاحبيه، وإنما يجهر به كلما وجد إلى الجهر به سبيلًا. وربما احتال حتى يُنشد شعره ذاك بأرفع صوته ليُسمعه مَن قِيل فيهم مِن الطلاب. ثم عظم في نفسه الوهم واستأثر بها حبُّ الشر، فكان كلما رأى أحدًا ينظر إليه فيطيل النظر، أو ينظر إلى بعض أصحابه أولئك الحسان اتخذه لنفسه عدوًّا وهجاه. ثم بدا له أن الهجاء وحده لا يُغني عنه شيئًا، فعمد إلى شر منه، وجعل يكتب إلى إدارة الأزهر وإلى الشيخ الأكبر خاصة، الرسائل في كل يوم، يسعى بها عنده في هؤلاء الطلاب الذين اتخذهم لنفسه عدوًّا.

وضاق الشيخ الأكبر بهذه الرسائل التي جعلت تُصَبُّ عليه في كل يوم كما ينصب المطر من السماء، وإذا الإدارة تُعَلِّقُ ذات يوم في لوحة الإعلانات تنبيهًا تدعو فيه الطلاب إلى أن يكفُّوا عن هذه الخطة التي يُنكرها الخُلُق ويُحرِّمها الدين، وهي السعي بالسوء في الشيوخ والطلاب عند المشيخة. وقد قرأ الفتى النواسيَّ هذا التنبيه ذات يوم بين هذه الإعلانات الكثيرة التي كان الطلاب يُعَلِّقُونَها يُعْلِنون فيها أن نعالهم قد ضاعت منهم، وأن من وجدها فليرُدَّها إلى صاحبها، وأن من سرقها فهو جدير بأن يغضب الله عليه ويقطعه من هذا المكان.

قرأ الفتى النواسيَّ هذا التنبيه بين تلك الإعلانات، فامتلأ قلبه غبطةً وابتهاجًا، وزعم أنه قد فاز فوزًا عظيمًا؛ لأنه ضايق الشيخ وأحرجه، وألحَّ في كتابة رسائله تلك إمعانًا في مُضايقة الشيخ وإحراجه، ولم يكفَّ عن ذلك إلا حين كف صاحباه عن الإلمام بالأزهر مخافةَ سوء العاقبة، واضطر هو إلى أن يهجر الأزهر كما هجره صاحباه.

على أن صاحبنا الفتى لم يلبث أن شُغِلَ — أو كاد يُشْغَلُ — عن صاحبيه بياض النهار، فقد كان يخلص لحياته هذه الجديدة التي أخذ يحياها منذ قرأ لنفسه أول مقال نشرته له الصحف. أرضاه ذلك عن نفسه وأطمعه في المزيد منه، فجعل يكتب في الجريدة رغبةً في الكتابة أحيانًا، وتقرُّبًا بها إلى مدير الجريدة أحيانًا أخرى، وجعل مدير الجريدة يرضى عن فصوله، ويُغريه بالكتابة، ويحثه عليها حثًّا، ويعلِّمه القصد في اللفظ والأناة في التفكير.

وما هي إلا أن جعل يُقرِّبه إليه، ويدعوه إلى زيارته حتى أصبح الفتى ملازمًا لمكتب المدير، يلمُّ به في أكثر أيام الأسبوع حين يرتفع الضحى، فلا يحجب عنه، وإنما يلقاه

الأستاذ المدير هاشًّا له، مرحِّبًا به، آخذًا في التحدث إليه والاستماع منه، فاتحًا له أبوابًا من التفكير، لم تكن تخطر له على بال، خائضًا معه في حديث الأدب القديم، راويًا له من الشعر ما كان يحفظ وما لم يكن قد سمعه من قبل، حتى استأثر بقلب الفتى وعقله وحتى أصبح للفتى أستاذان يختصُّهما بحبه وإعجابه، أحدهما يذكِّره بأئمة البصرة والكوفة وهو الشيخ سيد المرصفي، والآخر يُذكره بفلاسفة اليونان الذين سمع أسماءهم في الأزهر وجعل يدرس أطرافًا من فلسفتهم في الجامعة، وهو لطفي السيد.

وكان الفتى يختلف مع ذلك إلى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله، فيسمع له صوتًا عذبًا وحديثًا لينًا رقيقًا، ويرى من وراء هذا اللين وتلك العذوبة عنفًا أيَّ عنف إن ذُكِرت السياسة، أو ذُكِر الأزهر وشيوخه، أو ذُكِر بعض الكتاب الظاهرين الذين لا يكتبون في صحف الحزب الوطني. وكان يحبِّب العنف إلى الفتى ويُرغِّبه فيه، ويزيِّن في قلبه الجهر بخصومة الشيوخ والنعي عليهم في غير تحفُّظٍ ولا احتياط. فهو كان يرى أنهم آفة هذا الوطن يحولون بينه وبين التقدم بما كانوا يلجُّون فيه من المحافظة ويعينون عليه الظالمين بممالأتهم للخديو، ومصانعتهم للإنجليز.

وكان بُغضه لسعد زغلول رحمه الله معروفًا يتحدَّث به الناس، هجاه بمقالاته المشهورة التي جعل عنوانها: «ظلموك يا سعد»، وهجاه هجاءً مُنكرًا في بعض الشعر الذي لم ينشره؛ لأنه كان أعنف من أن يُنشر.

وقد أنشدني قصيدة قالها في السجن، وقد بلغه أن سعدًا قد يعود إلى الوزارة أو يصبح رئيسًا لمجلس الوزراء، لم أحفظ منها إلا مطلعها وهو بَشِعٌ كما ترى:

إنْ صَحَّ ما أنهَى الرواةُ لمسمعي فلسوفَ تُصبحُ تحت حكمِ الأقرعِ

وعلى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله يقع نصيب غير قليل من ثقل تلك الفصول الطوال السمجة التي كتبها الفتى، فشَغَل به الأدباء والمثقفين حينًا، ثم لم ينقطع استخذاؤه لها وضيقه بها وخجله منها كلما ذكرت له، وكان موضوعها نقد «نظرات» المنفلوطي رحمه الله، وكان عنوانها: «نظراتٌ في النظراتِ».

قرأ الفتى الفصول الأولى من نظرات المنفلوطي راضيًا عنها، مُعجبًا بها، ثم لم يلبث أن سئمها وانصرف عنها. ولكنه لم يكد يراها مجموعة في كتاب حتى ضاق بها أشدَّ الضيق، وكتب يعيبها ويغضُّ منها. وفرح الشيخ عبد العزيز جاويش بما كتب الفتى أشد الفرح، واستزاده من الكتابة، وحرَّضه عليها وألحَّ في التحريض، حتى ألقى في

رُوعه ألا يدع فصلًا من فصول المنفلوطي إلا اختصه بفصل من النقد. وكان الفتى قديم المذهب في الأدب لا ينظر منه إلا إلى اللفظ، ولا يحفل من اللفظ إلا بمكانه من معجمات اللغة، فكان عيب المنفلوطي عنده أنه يُخطئ في اللغة ويضع الألفاظ في غير مواضعها، ويصطنع ألفاظًا لم تثبت في «لسان العرب» ولا في «القاموس المحيط».

وما أسرع ما انزلق الفتى من هذا النقد السخيف إلى طول اللسان وشيء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة. ولم ينسَ الفتى مقالًا دفعه ذات مساء إلى الشيخ عبد العزيز جاويش، فلم يكد يقرأ أوله حتى طرب له وأبى إلا أن يقرأه بصوته العذب على من يحضر مجلسه ذاك، وابتهج الفتى حين سمع الثناء، وأحسَّ بالإعجاب، واستيقن أنه أصبح كاتبًا ممتازًا، ثم لم يذكر بعد ذلك أول هذا المقال حتى طأطأ من رأسه ومن نفسه، وسأل الله أن يتيح له التكفير عن ذنبه ذاك العظيم، وكان أول المقال: «عِمْ صباحًا أو مساءً، واشرب هواءً أو ماء، واستأجر من تشاء لما تشاء فقد وضح الحق وبرح الخفاء.»

كان بعض تَبِعَةِ هذا السخف يقع على الشيخ عبد العزيز جاويش، ولكن للشيخ عبد العزيز جاويش فضلًا على الفتى أيَّ فضل، فهو الذي ألقى في رُوع الفتى فكرة السفر إلى أوروبا حين قال له ذات يوم: «لا بدَّ من أن نصنع شيئًا لإرسالك إلى فرنسا عامَيْن أو ثلاثة أعوام.» لم يكد الفتى يسمع هذه الألفاظ حتى استقرَّ في نفسه أن ليس له بدٌّ من عبور البحر على أي نحو من الأنحاء، وقد لاحظ الفتى فيما بعد أن أحاديثه تلك عن المنفلوطي قد شغلت الناس حتى تحدَّث إليه فيها كل من كان يلقاه، إلا رجلًا واحدًا لم يُشر إليها قط على كثرة ما كان يلقَى الفتى، وعلى كثرة ما كان يتحدَّث إليه، وهو مدير الجريدة لطفي السيد.

فَهِم الفتى — ولكن مُتأخرًا — أن لطفي السيد لم يرضَ قطُّ عن هذه الفصول، ولو قد رضي عنها، وعن بعضها، لتحدَّثَ إليه فيها، وهو الذي كان كثيرًا ما يُشجِّع الفتى فيتنبأ له مرة بأنه سيكون موضعه من مصر موضع فولتير من فرنسا، ويقول له مرة أخرى: أنت أبو العلائنا، يتعمد إثبات الألف واللام على رغم الإضافة في اسم أبي العلاء، ثم يضحك ويغرق في الضحك حين يرى تنكُّر الفتى للجمع بين الإضافة وأداة التعريف.

أصبح الفتى كاتبًا بفضل هذين الرجلين: لطفي السيد وعبد العزيز جاويش، وأصبح كاتبًا لشيءٍ آخر: وهو أنه أثناء الأعوام العشرة الأولى من كتابته في الصحف لم يكتب إلا حُبًّا للكتابة ورغبةً فيها، لم يكسب بها درهمًا ولا ملِّيمًا.

الفصل الرابع

عندما خفق القلب لأول مرة!

على أن فضل الشيخ عبد العزيز جاويش على الفتى لم يقف عند هذا الحد، وإنما تجاوزه فأمعن في تجاوزه، فهو الذي عرَّف الفتى إلى جماهير الناس ووقَّفه بين أيديهم ذات صباح مُنشدًا للشعر، كما كان يفعل الشعراء المعروفون، وحافظٌ منهم خاصة، في بعض المناسبات العامة.

كان الناس قد ألفوا الاحتفال برأس العام الهجري كلما انقضى عام هجري، وأقبل عام جديد. وكان الشيخ عبد العزيز جاويش يحرص على أن يكون للحزب الوطني احتفاله بهذا اليوم، فأقام حفلة ذات عام في مدرسة مصطفى كامل، واحتشد لهذا الحفل عدد ضخم من الناس شبابًا وكهولًا وشيبًا، وكان الفتى قد أنشأ فيما بينه وبين نفسه قصيدة يستقبل بها عيد الهجرة، وأنشدها أمام الشيخ عبد العزيز جاويش، فرضي عنها وحثَّه على أن يقول أمثالها.

فلما كان هذا الحفل شهده الفتى مع الشاهدين، ولكنه لم يكد يتخذ مكانه بين الناس، حتى أقبل من أخذ بيده وأجلسه على المنصَّة. ولم يقدر الفتى في نفسه إلا أن الشيخ عبد العزيز جاويش قد أراد أن يرفق به ويتلطَّف له ويُقرِّبه من مجلسه، فرضي عن ذلك كل الرضا، وعدَّه فضلًا من الشيخ عظيمًا، وأُلقِيَت الخطب وصفَّق المصفقون، ولم يَرُع الفتى إلا أن سمع اسمه يعلن إلى الناس، ورأى نفسه يُدعى إلى إنشاد قصيدته العصماء! فلبث في مكانه جامدًا واجمًا لا يدري ماذا يصنع، ولا يعرف كيف يقول،

وأقبل من أخذ بيده، وهَمَّ الفتى أن يمتنع حياءً وخجلًا، ولكن الذي أخذ بيده جذبه جذبًا شديدًا وجعل الذين من حوله يدفعونه وينهضونه حتى أنهضوه وجروه جرًّا إلى المائدة. واستقبل الفتى بتصفيق شديد منحه قوة وجرأة، فأنشد قصيدته في صوت ثابت ممتلئ، ولكنه لم يكن يستقر في موقفه، وإنما كان جسمه يرتعد ارتعادًا، واستُقبلت قصيدته أحسن استقبال وأروعه حتى خُيِّل إلى الفتى أنه قد أصبح حافظًا أو قريبًا من حافظ.

ثم مرَّت الأعوام وتبعتها الأعوام، واختلفت على الشيخ وعلى الفتى خطوب أيُّ خطوب، وتعاقبت أحداث في مصر أيُّ أحداث! وجلس الفتى ذات مساء إلى صديق له كريم، وقد جاوز الفتى سنَّ الشباب والكهولة، وأخذ في ذكر الصبا وأيام الطلب، وأُنسِيَ الشيخُ شبابَه وصباه وشُغِل عن حياته الماضية، وأعرض عن الشعر كلَّ الإعراض بعد أن استبان له أنه لم يقل الشعر قط، وإنما قال سخفًا كثيرًا. وإذا الصديق الكريم يذكُره بموقفه ذاك في مدرسة مصطفى كامل وإنشاده قصيدتَه تلك، ويذكر له مطلع تلك القصيدة، فيرثي الشيخ لما أضاع من شبابه وما أنفق من جهده في غير طائل ولا غناء.

ثم لم يقف الشيخ عبد العزيز جاويش بالفتى عند هذا الحدِّ، ولكنه علَّمه الكتابة في المجلات؛ فقد أنشأ مجلة «الهداية»، وطلب إلى الفتى أن يشارك في تحريرها، ثم ترك له — أو كاد يترك له — الإشراف على هذا التحرير، وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلم الفتى من إعداد الصحف وتنسيق ما ينشر فيها من فصول. ولم تخل «الهداية» من جدال عنيف دُفع إليه الفتى دفعًا، وكان خصمه الشيخ رشيد رضا، وقد أسرف الفتى على نفسه وعلى الشيخ رشيد في ذلك الجدال، وكتب أحاديث استحى منها فيما بعد حين ذكرت له، ولكن الشيخ عبد العزيز كان عنها راضيًا وبها كَلِفًا، وقد أجاز نشرها وشجَّع الفتى على المضي فيها. كان يمقت من الشيخ رشيد ممالأته للخديو وانحرافه عن طريق الأستاذ الإمام، وما دُفع إليه من إعجاب بنفسه واغترار بثناء الناس عليه وإعجابهم به.

ثم أضاف الشيخ إلى كل هذا الفضل فضلًا آخر وقع من نفس الفتى موقع الماء «من ذي الغُلَّة الصادي» أرضاه عن بعض حاله، وأكبره في نفسه شيئًا، وأشعره بأن قد أتيح له أن يجلس مجلس المعلم، وأن يكون له تلاميذ كثيرون بعد أن حال الأزهر بينه وبين ذلك.

فقد أنشأ الشيخ عبد العزيز جاويش مدرسة ثانوية كما أنشأ مصطفى كامل مدرسة، وكلَّف الفتى أن يعلِّم فيها الأدب على ألا ينتظر على ذلك أجرًا؛ فالمدرسة عمل وطني لا أجر عليه لمن يُشارك فيه. ولم يكن الشيخ يفيد من هذه المدرسة شيئًا، وربما

أنفق عليها من رزقه وكلف نفسه في سبيل ذلك شيئًا من الحرمان، وربما ألحَّ على بعض الأغنياء وأوساط الناس حتى استكرههم على أن يُعينوه على نفقاتها ببعض المال. وقد أقبل الفتى على تعليمه ذاك فرِحًا به مبتهجًا له، يرى فيه شفاء لغيظه من الأزهر، ويرى فيه مع ذلك مشاركة في بعض الخير.

ثم لم يلبث هذا كله أن انقطع فجأة، صُرف الشيخ عنه بأحداث السياسة، ثم اضطر إلى أن يهاجر من مصر على غير انتظار لهجرته، ولم يره الفتى منذ ودعهم ليلة سفره إلا بعد أعوام طوال، بعد أن عاد عودته تلك، فقد سافر من مصر فجأة، وعلى غير علم من أهلها، وعاد إلى مصر فجأة، وعلى غير علم من أهلها أيضًا.

وهو على كل حال قد أعان الفتى على الخروج من بيئته تلك المغلقة إلى الحياة العامة، وعلى أن يكون له اسمٌ معروف. ومثل ذلك فعل الأستاذ أحمد لطفى السيد؛ فعرَّف الفتى إلى كثيرين من الذين كانوا يُلمُّون بمكتبه في الجريدة من الشيوخ والشباب.

وفي مكتبه اتصل برفاق له أحباء عمل معهم فيما بعد، ولقي معهم خطوبًا أيَّ خطوب، عرف عنده هيكل ومحمود عزمي والسيد كامل، وكامل البنداري وأترابًا لهم كثيرين. وعرف بفضله لونًا من المعرفة لم يكن يُقدِّر أنه سيتاح له في يوم من الأيام؛ فقد لَقِيَ عنده ذات يوم تلك الفتاة التي كان الناس يتحدثون عنها فيكثرون الحديث، لا لأنها كانت جميلة فاتنة، ولا لأنها كانت جذابة خلابة، ولكن لأنها كانت طامحة مُلحَّة في الطموح، ظفرت لأول مرة بالشهادة الثانوية، وكانت أول فتاة ظفرت بها، وهي نبوية موسى.

وكان الفتى قد لقي السيدات في بيئته تلك الريفية، ولكنه لم يلقَ منهم القارئة الكاتبة البرْزَة التي تظهر في مجالس الرجال وتحاورهم، فتلجُّ في المحاورة وتخاصمهم فتعنف في الخصام، قبل أن يلقَى تلك الفتاة.

واحتُفل ذات مساء في حجرة من حجرات الجامعة القديمة بتكريم خليل مطران رحمه الله، وكان الخديو قد أهدى إليه وسامًا. وكان شقيق الخديو الأمير محمد على رئيسًا لهذا الاحتفال، وكان الشعراء سينشدون فيه الشعر، وكان الخطباء سيلقون فيه الخطب، فاعتذر الفتى إلى أستاذه في الجامعة من حضور الدرس، ولم يكن يكره شيئًا كما كان يكره التخلف عن الدروس، وآثر شهود ذلك الحفل. وفيه سمع كثيرًا من الشعر وكثيرًا من الخطب، فلم يحفل بشيءٍ مما سمع، لم يعجبه شعر حافظ في ذلك المقام، مع أنه كان كثير الإعجاب بشعر حافظ، ولم تعجبه قصيدة مطران؛ لأنه لم يفهم منها شيئًا، ولم يذق منها شيئًا، وربما أحس فيها إسرافًا من الشاعر في التضاؤل أمام الأمير الذي أهدى إليه ذلك الوسام؛ فقد شبَّه نفسه بالنبتة الضئيلة، وشبَّه الأمير بالشمس التي تمنحها الحياة والقوة والنماء. لم يَرضَ الفتى عن شيءٍ مما سمع إلا صوتًا واحدًا سمعه فاضطرب له اضطرابًا شديدًا وأَرِق له ليلته تلك، كان الصوت نحيلًا ضئيلًا، وكان عذبًا رائقًا، وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ منه في خِفَّة إلى القلب فيفعل به الأفاعيل. ولم يفهم الفتى من حديث ذلك الصوت العذب شيئًا، ولم يحاول أن يفهم من حديثه شيئًا، شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث، وكان صوت الآنسة ميِّ التي كانت تتحدث إلى جمهور من الناس للمرة الأولى. ولم يستطع الفتى حين أصبح من ليلته تلك أن يمتنع عن السعي إلى مدير الجريدة، وقد جلس إليه فقال له وسمع منه. ثم ما زال يدور بحديثه حتى انتهى إلى حفل مطران، وحتى انتهى من حفل مطران إلى ذكر تلك الفتاة التي تحدثت فيه، والتي لم يسمع الفتى عنها قبل يومه ذاك. وقد سأله مدير الجريدة عما

قالت الفتاة فلم يحسن ردًّا، وإنما لجلج في القول. وأثنى الأستاذ على ميٍّ، وأنبأ الفتى بأنه سيقدمه إليها في يوم قريب، وابتهج الفتى بهذا الوعد وإن لم يُعرب عن ابتهاجه، وظلَّ يرقب البرَّ به. ولكن الأستاذ نسيه، واستحيا الفتى أن يذكره فحمل نفسه على المكروه، وما أكثر ما كان يحملها على المكروه! وأعرض عن ذكر ميٍّ، واجتنب حديثها إلى الأستاذ، ومضت أيام وأشهر وظفر الفتى من الجامعة بدرجة الدكتوراه، وأعطى مدير الجريدة رسالته عن أبي العلاء، فقرأها ورضيَ عنها، ولكنه لم يردَّها إلى الفتى، وإنما قال له: إنما ستُرَدُّ إليك رسالتك بعد أيام؛ لأن الآنسة ميَّ قد طلبت أن تقرأها، وسمع صاحبنا ذكر ميٍّ، فبدا عليه فيما يظهر شيء من وجوم، وكأن الأستاذ لاحظ ذلك فذكر وعده القديم وقال للفتى في رفق: ألم أعدك بتقديمك إليها؟

قال الفتى: أكاد أذكر ذلك.

قال الأستاذ: فالْقَنِي مساء الثلاثاء فسنزورها معًا.

وفي مساء الثلاثاء رأى الفتى نفسه لأول مرة في حياته في صالون فتاة تستقبل الزائرين من الرجال، حفِيَّةً بهم، معاتبة لهم في رشاقة أيِّ رشاقة، وفي ظَرف أيِّ ظَرف، وفي حديث عذب يخلب القلوب ويستأثر بالألباب.

وطال المجلس وكثر الزائرون، ودارت أكواب الشاي والفتى في مكانه لا يكاد يحس من ذلك شيئًا، قد ملك الوهم والوَجَلُ عليه أمرَه كله، فهو لم يشهد مثل هذا المجلس قطُّ، وليس له عهد بمثل ما يجري في مثل هذه المجالس من المراسم ولا بما يُتَّبع فيها من التقاليد والعادات، فهو منكرٌ نفسَه، منكرٌ مَن حوله وما حوله، إلا شخصين اثنين، هما: الأستاذ لطفي السيد والآنسة ميُّ.

وقد أخذ الزائرون في الانصراف، ورغب الفتى فيه ليخلص من حَرَجه، وأشفق منه حرصًا على صوت ميٍّ وحديثها، ولم يحاول أن ينصرف، فما كان له أن يحاول ذلك قبل أن يؤذنه به الأستاذ.

وقد انصرف الزائرون جميعًا وخلا للأستاذ وتلميذه وجه ميٍّ، فخاضت مع الأستاذ في بعض الحديث، وأثنت للفتى على رسالته في أبي العلاء، فأغرقت في الثناء، واستحيا الفتى شيئًا، ولم يحسن أن يشكر لها ثناءها. ولكن الأستاذ يطلب إلى الفتاة أن تقرأ عليه مقالها ذاك، فتتردد الفتاة شيئًا، ثم تُقْدِمُ بعد أن تُعلن إلى الفتى أنها تقرأ على الأستاذ هذا المقال؛ لأنه هو الذي يُعلِّمها العربية ويعلِّمها الكتابة.

قال الفتى في صوت مختنق ولفظ مجمجم: كما يعلمني أنا.